دراسات أدبية

في الأدب الايطالي الحديث

بقلم محمد أمين حسونه

إن البقرية القصصية الممثلة اليوم في أعمال طائفة من أدباء الايطاليين ، لم يعن بها مع الأسف واحد من النقدة المشتغلين بالآداب العربية ، ومعظم الذين تحدثوا عن نهضة قصة وقفت معلوماتهم عند جبرائيل دانتزيو شاعر بسكارا ؛ مع أن الفن الروائي الحقيقي يبدأ بعد عصر دانتزيو ، بل إن الفضل في تقدم القصة الايطالية يعود إلى تأليف المناصر على الجو الشعري الحالم ، وانتفاء روح المرح ، وفي التحدث عن الذات ، وهي الصفات التي يرتكز عليها فن دانتزيو الأدبي

وليس هذا معناه أننا نغمط دانتزيو حقه ، بل الواقع الذي يجب الاعتراف به أن زعماء الصفوف الذين سبقوا دانتزيو ، كانوا إما شعراء أو نقدة أو كتاب مسرحيات أو تراجم ، ولم يتمخض الجيل الأدبي عن عبقريات أو مواهب قصصية مطلقا ، لأن العصر كان فوضى ، لا مقاييس تحده ، ولا معالم يعرف بها ، وقد شبه النقادة ريشارد جارنت هذا العصر — في كتابه Alla Scoperti dei Letterati — بأنه يحاكي المدرسة الفلسفية الأغريقية ، التي وقعت تحت سيطرة الامبراطورية الرومانية الفكرية

على أن الفضل في تفتح أذهان الأدباء الايطاليين إلى الفن القصصي ، إنما يعود إلى جيته وفيكتور هيجو وبلزاك وموباسان فهم في الواقع أساتذة المدرسة الأدبية الحديثة في ايطاليا ، وفي مؤلفاتهم تلمذ جيل الأدباء في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين ، وهي ظاهرة غريبة ، فان الأرض التي أنجبت في القرن الثالث عشر أستاذ الأقصوصة جيوفاني بوكاتشو ، ظلت مجدبة زهاء ستة قرون إلى أن بزغ نجم دانتزيو في سمائها

وقبل التحدث عن شاعرية دانتزيو وفنه ، نرى من الخير ألا نهمل الأثر البارز الذي غرسه أستاذه كاردوتشي[1] في نفسه . والواقع أن كاردوتشي مؤسس مدرسة أدبية عظيمة لا نعرف لها مثيلا في الآداب الايطالية . الم إلا تلك الجهود القيمة التي سجلها دانتي ، وفي مدرسة كاردوتشي تتلمذ بنزيني وجراسيا ديلايدا وبيراندللو وجيوفاني بابيني وغيرهم من أعلام الأدب الحديث ولكاردوتشي يرجع الفضل في تحويل الأدب الايطالي من الصبغة القومية الخالصة إلى النزعة الانسانية والخروج برسالته من الحيز المحلي الضيق الى المحيط العالمي وبث روح الاخاء المشتركة ، وهي التي أملت عليه ملاحم : الربيع ، والأم ، وترنيمة الشيطان ، وصقلية تحت سيوف العرب الخ ...

ولقد خدم كاردوتشي الأدب الايطالي كنقادة أكثر مما خدمه كشاعر ، ومن هنا استطاع دانتزيو أن يحمل تقاليد أستاذه مع محافظته على الطابع الخاص به . ويتمثل هذا الطابع في غمر قصصه بعناصر الاستمتاع وصبغها بألوان من الشهوة الصارخة المأججة ، فهو كفنان رجل عابد للجمال ، متأمل للحياة من خلال أحاسيسه ، يخضع الفن لسلطان العاطفة أكثر مما يخضعه لسيادة العقل . ومعظم أبطاله شهوانيون ، لا تطيب الحياة لهم الا في جو من القبلات والعناق ، يقدرون معايير الجمال عن طريق الشهوة ، ويتبذون الفكر والتأمل لحياتهم داعرة متهتكة

والذين يعرفون شاعرية دانتزيو في رواياته الرائعة ، كانتصار الموت Il trinfo della morte والفرح Il piacere والنار Il fiuco يستطيعون أن يستشفوا من خلال سطورها روحه الهائمة ، التوافة الى عبادة الجمال والتمرغ في أحضان الفن الشهواني وأوكار الحب المبتذل الرخيص

على أن دانتزيو استطاع عن طريق نزعته الى المجد ، أن يعيد الى الأدب الايطالي جو الوطنية الصارخ ، وأن يضع لجيوش بلاده أناشيدها الحماسية التي ترتلها في ساحات الوغى والقتال

ولم يكن استيلاؤه على فيومي إلا نوعاً من الأساليب الشعرية ،

(١) جوزيه كاردوتشي Giosué Carducci أول من ظفر بجائزة نوبل الأدبية من الايطاليين . بدأ حياته بالتدريس في جامعات بولونيا تاريخ الأدب وتوفي عام ١٩٠٧ بعد أن ترك ثروة فكرية هائلة أهمها في الشعر والنقد وتاريخ صقلية

فبعد خرق معاهدات الصلح وسير أساطيله لاحتلال هذه المنطقة الحرة أذاع بياناً على العالم قال فيه : « أستحلف فرنسا التي أنجبت هيجو وأمريكا التي خرج منها لنكولن وانجلترا التي خلقت ملتون أن تكن شاهدات عدل على ما أتيته . أنا ابن الوطن الجندي المتطوع الذي دفعته الغريزة الانسانية الى أن يضم الرضيعة فيومى الى أمها ايطاليا »

وفي قصيدته الحماسية الرائعة التي خاطب بها كبلنج شاعر الاستعمار البريطاني بمناسبة حرب الحبشة ، تبدو أمامنا قوة شاعريته الظامئة نحو المجد إذ قال : « إن الرياح الافريقية القائظة التي تسفع وجوهنا اللاتينية الجميلة لا تعادل جزءا من قوة إعصار البطولة التي تهب على قريحتي كلما فتحت دواويتك لأترنم بأناشيدك الاستعمارية في الهند وافريقيا . فأراني في كهولتي عاجزاً عن أن أقود جيش بلادي إلى « فيومى » أخرى ، فهيا يا أبنائي إلى النصر ... لأن مصير مجد الانسانيـــة الجديد متوقف على انتصار « الرومانية » ضد « البربرية » وحلفاء البربرية ... إن الحرب ضرورة عالية لخلق جيل جديد وإعادة شباب الانسانية وتطهير الأجسام والأرواح وإنعاش بطولة التاريخ »

ومن رأى دانتزيو أن إيطاليا الفاشستية ترى في اسم قيصر رمزاً أبدياً لأعظم ضروب مجدها الوطني وأن غاية ما يتمناه اليوم استعادة مجد روما القديم الذي تألق في عصر قيصر .

بنزيني

وعلى الضد من دانتزيو ، نرى زميله جيوفاني بنزيني ينحو في فنه منحى جديداً ، ويؤدي رسالة أستاذه كازدوتشي عن سبيل آخر هي معالجة مشكلات العصر في ضوء من الانتقاد المر اللاذع

وعلى الرغم من أن بنزيني ولد في نفس العام الذي ولد فيه دانتزيو فان اسمه كأديب وقاص لم يعرف إلا في السنوات الأخيرة للحرب العظمى . أي في الوقت الذي بدأ الايطاليون يتمردون فيه على أساليب دانتزيو الشعرية وفنه الأناني . وقد استطاع بنزيني أن يقضي تماما على نفوذ زميله عن طريق الحملة المدوية التي تولى قيادتها أدباء الشباب في فلورنسا وغيرهم من الملتفين حول جريدة « الصوت »

ولا يخفى ما لبنزيني من النفوذ القوي في دوائر الصحف الأدبية فهو يعاونها بين وقت وآخر بالمساعدات المادية والأد

وأكثر ما نلمحه في فن بنزيني الروائي خلوه من الأساليب المعقدة والنزوع إلى حياة الطبيعة الهادئة والرجوع بالانسا إلى طفولتها الأولى كما في روايته « العالم يدور » وتعرضه لمتاع الحياة المادية في شيء من السخرية اللاذعة والنقد المر ممتز بمسحة من روح الفكاهة والمرح البرئ . وقد استطاع في روايا الرائعتين « ارمندا التعسة » و « مصباح ديوجين » أن يحاق في جو تدور فيه الأشباح المعذبة من جراء المشكلات الاخلا في العصر الحديث

جراسيا ديلليدا

ولعل جراسيا ديلليدا Grazia dellcdda هي القصصية الوحيا التي تبتعد بفنها الروائي عن الجو العالمي لتعيش في دائرة جزيرة الضيقة « سردينيا » بين القرويين ورعاة الأغنام لتصور حياتهم أروع تصوير في مؤلفاتها التي تحمل طابعي السذاجة والبرا والدعوة إلى التمسك بأهداب الفضيلة

وعلى الرغم من أن هذه القصصية المجيدة أحرزت جائز نوبل في الأدب ، وانتخبت عضواً في أكاديمية روما وفي مجم الخالدين الذي أسسه موسوليني عام ١٩٢٦ ، وعلى أنها محور الحياة الأدبية في ايطاليا ، فهي عزوف عن الشهرة ، وتتحاشو جهدها الظهور في المحافل والأندية ، أو بث الدعاية لفنها في الصحف والمجلات

وقد تجلت موهبة ديلليدا القصصية في روايتها « الأم » التي ظفرت من أجلها بجائزة نوبل ، وهي عبارة عن مأساة قيس شاب نفذ الحب الى أعماق قلبه فقهره واستولى على لبه حتى غلب على أمره وأصبح خاضعاً لسلطانه بحيث أفسد عليه وظيفته الروحية المقدسة

ولكن ليس هذا كل ما في الأمر ، « فالأم » التي خصصت حياتها لحبة ابنها ووهبته للكنيسة وخدمة مجد الله حتى غدا قسيسا يصل بينها وبين السموات المشرقة ، هذه الأم قدمت من الريف يوما تطلب ابنها فاذا بهذا الذي أودعته ذرات حياتها وتفكيرها ، وعلقت عليه آمالها في الحياة الأخرى ، تأسره امرأة

سنى لنداء القلب ، ويهجر مركزه الكنسى كى يتفرغ لشؤون الحب والحياة

وفى الساعة التى تذهب فيها الأم الى الكنيسة لتضرع إلى الله واجفة القلب ، دامعة العين أن يحرس وحيدها ويلهمه الرشد ، إذا بالابن يتقدم فى خطى ثابتة نحو المحراب الذى تصلى أمه على مقربة منه ليتجرد من ملابسه الدينية ويخرج من الكنيسة ، فتصعق الأم وتفيض روحها الى جانب المحراب

وقد أصبح « الام » عنوانا مألوفا فى ايطاليا ، فان ملحمة كاردوتشى الشعرية التى ظفر من أجلها بجائزة نوبل كانت موسومة باسم الأم ، ومعهد الأمومة الدولى الذى أسس بسردينيا أطلق عليه اسم « الأم »

وقد ذكر القادة الايطالى ستاينس روبناس محرر صحيفة التريبونا ، فى دراسة أدبية عن قصص ديلليدا : « ان فنها الروائى يدور حول التفاؤل بالخير لأنها تؤمن بأن الله دائما ضد الشر . وهى صانعة ماهرة أكثر منها فنانة مبدعة ، وبالنسبة لتصوير عادات بلدها مثلة ذات ضمير حى ، أما رسم العواطف الخارجة عن محيطها فى سذاجة فطرية بسيطة »

ولم تشذ عن هذه القاعدة الا فى رواية واحدة هى الاباية Nostalgia فهى مصبوغة بعاطفة انسانية عميقة ، وقد كتبتها بعد زواجها ونزوحها عن جزيرتها الى روما حيث كان أثر انعكاس الحياة الجديدة قويا فى نفسها

أما قصتها الرائعة « السيدة الصامتة ذات الشعر الفضى » La Donna silenziosa dei capelli d'argento فهى عبارة عن تاريخ حياتها وقد كتبته بأسلوب بسيط جذاب ، فقصت نشأتها فى قرية نورو بسردينيا وتفوقها فى الآداب وهى لا تزال طالبة بالمدرسة الثانوية حتى ظفرت بجائزة قدرها خمسون ليرة كانت احدى المجلات قد رصدتها لأحسن قصة تقدم اليها

وتحدثت عن زواجها وعن الفضائل الشائعة فى بلدها وتغلقها بجبال سردينيا وبحارها وأشجارها ، وهى فى هذا تقول : « أهلها هم أهلى ، أرضها ووديانها شطر من كيانى ، فلماذا أفتش عن موضوعات قصصية وراء الأفق ، ما دمنا نستطيع أن نفتح أعيننا على مآس وفواجع تقع فى كل ساعة بين أيدينا ؟ إنه لمن العار ألا نكون فى جانب الصدق . ألا نرسم الحياة التى نعيش فى داخل نطاقها ، ولو كانت ضئيلة تافهة . أما التعبير عن الاحساسات الخارجة عن دائرة شعورنا الحقيق فسقوط فى بشع ، إننى أكتب لنفسى اليوم ، وبحكم شعورى الخاص ، أما توقع النجاح فأتركه للمستقبل »

وبالاجمال فان ديلليدا تمكنت من أن تقدم للعالم صورا واضحة من حياة أهل الجزيرة الصخرية النائية التى لم تصل الحضارة الأوربية الى بعض أطرافها وأن تصف عاداتهم القديمة وأساليبهم فى العيش حيث يؤمن الناس بمبدأ المساواة بين الجنسين واعدام المرأة إذا ثبتت عليها جريمة الزنا

(يتبع)

محمد أمين حسونة

ظهر حديثاً

ديوان أحلام النخيل

للشاعر الشاب عبد العزيز عتيق

صور صادقة من شعر الوطنية والطبيعة والوجدان

يطلب من المكاتب الشهيرة . وثمنه ٦ قروش